



خطبة صلاة الجمعة 10 / 1 / 2021 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالك

(التفاؤل)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: 9]
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: كلمة طيبة».

وفي رواية: «ويعجبني الفأل الصَّاح: الكلمة الحسنة».

وفي رواية: «ويعجبني الفأل الكلمة الحسنة، الكلمة الطيبة».

عنوان خطبة اليوم: التفاؤل

أيها الإخوة:

من مظاهر قوة الإرادة التفاؤل بالخير، وصرف النفس عن التشاؤم من العواقب، ما دام الإنسان يعمل على منهج الله فيما يرضي الله.

التفاؤل وحسن الظن بالله عبادة عظيمة، يقول الله جل وعلا ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87] فاليأس صفة للكافرين.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: 56] فاليأس قرين الضلال.

أخرج الحاكم في المستدرك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ».

التفاؤل: هو حسن الظن بالله، والتفاؤل توقع الخير، والتفاؤل ألا تسمح للمصائب أن تأخذك إلى اليأس، التفاؤل أن ترى ما عند الله، والتفاؤل: أن تكون واثقاً بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، والتفاؤل أن تكون غنياً بالله، والتفاؤل أن ترى الهدف البعيد، فإذا حالت عقبات دونه وأنت مُصر عليه فأنت متفائل، والتفاؤل صفة العظماء، والتفاؤل صفة المؤمنين، والتفاؤل صفة الذين عرفوا أن الأمر بيد الله، صفة الموحدين، والتفاؤل أن تكون محصناً من أن يأخذك اليأس إلى مكان بعيد.

في غزوة الخندق اجتمع عشرة آلاف مقاتل من أحزاب العرب لقتال المسلمين، والمسلمون في قلة من العدد والعدد، ويخاف المسلمون من غدر يهود المدينة وانقلابهم عليهم فيقعوا بين فكي كمشاة، وهكذا كان، وفي الجو ما في الجو من الضيق والقلة والكره والخوف ما قال عنه القرآن الكريم: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10، 11].

قال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكيننا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء وأخذ المعول فقال: «بسم الله ثم ضرب ضربة، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني).

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الفأل والتفاؤل، ويزرع الأمل في قلوب من حوله ويحدثهم بموعد الله.

قال المنافقون يومها إنَّ محمداً يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأخذنا لا يأمنُ أن يذهبَ إلى العائِطِ!

وتمر الأيام ويتحقق وعد الله ويفتح المسلمون الشام والعراق وما وراء العراق ومصر والقسطنطينية، ويغنمون كنوز كسرى وقيصر.

التفاؤل مع العمل الصالح قوة، والتشاؤم واليأس مع القنوط ضعف وهزيمة.

كتب أحد الدعاة مبحثاً عنونه بقوله (احذروا اليأس فإنه قتال، جاء فيه:

اليأس: هو القنوط، وهو نقيض الرجاء، وهو نوعان: يأسٌ مطلوب، ويأسٌ محرم، أمّا اليأس المطلوب للمرء فعلة بل واجب عليه في كثير من الأحوال فهو اليأس ممّا سوى الله تعالى من خلقه، ولا سيما ممّا في أيديهم ممّا أعطاهم الله تعالى من نِعَمٍ لم يُعْطِها له، فعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، علّمني وأوجز، قال: «إِذَا قُئِمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُؤَدِّعٍ، وَلَا تَكَلِّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَاجْمَعْ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» [ابن ماجه].

ومن هنا كان بعض الصّالحين يقول: حُسْنُ الظَّنِّ بالله هو اليأس عن كلّ شيء سوى الله.

أمّا اليأس المحرّم: فهو القنوط من رحمة الله، أو من تغيير الحال، أو يأسه من زوال ما ألمّ به، أو يأسه من النّصر.... وهكذا.

والإيأس من رحمة الله منهي عنه، وقد عدّه العلماء من الكبائر، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئل: ما الكبائر؟ فقال: «الشِّرْكُ بِاللّهِ، وَالْإِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللّهِ» [ابن أبي حاتم].

قال ابن حجر: وإمّا كان اليأس من رحمة الله من الكبائر لأنّه يستلزم تكذيب النّصوص القطعية، ثمّ هذا اليأس قد ينضم إليه حالة هي أشدُّ منه، وهي التّصميم على عدم وقوع الرّحمة له، وهذا هو القنوط...، وقد ورد النّهي عن القنوط بسبب الفقر أو الحاجة أو حلول المصيبة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الرّوم: 36-37].

كان عبد الأعلى التّيمي يقول لجار له: (أعدّ لعظيم الأمور حُسْنَ الظَّنِّ بالله عزَّ وجلّ) [البيهقي في الشعب].

أيها الإخوة:

حسب الإنسان من التفاؤل أن يعيش سعيداً بالأمل، فالأمل جزء من السعادة.

أما التشاؤم فيكفيه ذمّاً وقبحاً أنه يشقي صاحبه ويقلقه ويعذبه، قبل أن يأتي المكروه المتخوف منه.

كيف لا يتفائل المؤمن وهو يقرأ في القرآن: ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123] ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47] ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: 173] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: 51] ﴿وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 19] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: 2].

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره التشاؤم، في حله وترحاله، في حربه وسلمه، في جوعه وعطشه، وفي صحاح الأخبار دليل هذا،

في أصعب الظروف والأحوال كان صلى الله عليه وسلم يبشّر أصحابه بالفتح والنصر على الأعداء: فيوم هجرته إلى المدينة فراراً بدينه، وبحثاً عن موطن قدم لدعوته يبشّر عدواً يطارده يريد قتله بكنز سيناله، وسوار ملك سيلبسه، وأعظم من ذلك دين حق سيعتقه، وينعم به ويسعد في رحابه!! وفي الغار مع صاحبه، والكفار على باب الغار وقد أعمى الله أبصارهم، يبشّر أبا بكر بالظفر، فعن أنس عن أبي بكر رضي الله عنهما قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا، قال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين ثالثهما الله».

وفي بدر يتفائل بالنصر ويخبر صلى الله عليه وسلم بمصرع رؤوس الكفر وصناديد قريش. وإذا عاد مريضاً يتفائل بشفائه وزوال وجعه؛ بمسحه عليه بيده اليمنى وقوله: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

كل ذلك وغيره كثير مما يدل على تحليه صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة الكريمة: التفاؤل والرجاء وحسن الظن بالله، والبعد عن التشاؤم الذي لا يأتي بخير أبداً.

أخرج أبو داود عن عروة بن عامر القرشي قال: «ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

أيها الإخوة:

يجب الإسلام التفاؤل ويرغب فيه؛ لأنه عنصر نفسي طيب، يشحذ الهمم ويدفع إلى العمل، ويملأ القلب طمأنينة وأملاً، وهو يدل على قوة الإرادة.

ويكره الإسلام التشاؤم، وينقّر منه؛ لأنه عنصر نفسي سيء، يثبط الهمم ويدفع إلى الكسل، ويملاً القلب وهناً ويأساً، وهو يدل على ضعف الإرادة.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: 28].

فتفاءلوا واعملوا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 109، 110].

فتفاءلوا واعملوا.

﴿مَسَّئُهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

فتفاءلوا واعملوا.

والحمد لله رب العالمين